المبحث الثاني
المدارس البلاغية

تعددت العوامل المؤثرة في البلاغة كثيرة منها الادبية ومنها الكلامية ، وقد أدّى هذا الاختلاف في المؤثرات إلى ان تتجه البلاغة اتجاهين أطلق عليهما اسم «المدرسة الكلامية» و «المدرسة الادبية». وأشار هذين الاتجاهين أو المدرستين قديم، وقد نبه أبو هلال العسكري إلى منهجين في دراسة البلاغة، فقال :

«وليس الغرض في هذا الكتاب سلوك مذهب المتكلمين وانما قصدت فيه قصد صناع الكلام من الشعراء والكتّاب، فلهذا لم أطل الكلام في هذا الفصل» (١) . وقال السيوطي وهو يترجم لنفسه : «ورزقت البحر في سبعة علوم : التفسير والحديث والفقه والنحو والمعاني والبيان والبديع على طريقة العرب والبلغاء لا على طريقة المتكلم وأهل الفلسفة» (٢). ولو لم تكن معالم هذين الاتجاهين واضحة ما وجدنا العسكري يصرح بها في عهد مبكر، ولما جعل السيوطي بعده يقرون بفخر بأنهم درسوا البلاغة على طريقة العرب والبلغاء لا على طريقة العجم وأهل الفلسفة.

فما خصائص كل مدرسة؟ ومَنْ أشهر أعلامها ؟

المدرسة الكلامية :

كان للفلسفة وعلم الكلام أثر في الفكر العربي والاسلامي، ولم يسلم علم من العلوم من هذا الأثر الفلسفي والكلامي، وكان للبلاغة نصيب عظيم من ذلك الاثر فوثقت الصلة منذ عهد مبكر بينها وبين المنطق والفلسفة، وأخذت هذه الصلة تزداد قوة بمرور الزمن حتى بلغت أوجها في القرن السادس للهجرة وما بعده. وقد تمكن هذا في الدرس البلاغي، فكانت المدرسة الكلامية التي اهتمت بالتحديد الدقيق والتقسيم الدقيق، وجعل التعريف جامعا مانعا، واستعمال أساليب المتكلمين

(١) كتاب الصناعتين ص ٩.
(٢) حسن المحاضرة ج ١ ص ١٥٥ وما بعدها

في بحث الموضوعات وحصرها، والاكثار من الالفاظ الفلسفية والمنطقية، وقد سأل البلاغيون كثيراً من المقولات (١) عند القول في الملكة حين وردت في تعريف الفصاحة والبلاغة، وما صدّروا به البيان من بحوث الدلالات الوضعية والعقلية. وأدخلوا فيها بعض مسائل الفلسفة الطبيعية والالهية والخلقية كالكلام في الالوان والطعوم والروائح والحواس الانسانية ومقرها، والوهم والخيال والفكرة والحس المشترك والاسباب والمسببات وغيرها. وأدخلوا فيها من الالفاظ الفلسفية والكلامية الشيء الكثير، مما لاصلة له بالبحث البلاغي الذي يعتمد أول ما يعتمد على الذوق السليم.

ومن شواهد الاثر الفلسفي في هذه المدرسة الاقلال من الامثلة الادبية، لان رجالها اهتموا بالتحديد المنطقي والحصر والتقسيم، فكانوا يذكرون لكل قاعدة شاهداً واحداً أو مثالا قصيراً. وليتهم وقفوا عند ذلك، فهم كثيراً ما يذكرون أمثلة لاجمال فيها، لان صحة الشاهد أو المثال عندهم أصل كل شيء، أما جماله وما يبعث في النفس من احساس أو شعور فني فلم يوجهوا عنايتهم اليه: ولعل اهتمام المتأخرين منهم بالاختصار وتلخيص الكتب المتقدمة كان سبب الاقلال من الامثلة والشواهد والاكتفاء باقلها وأقصرها وبما ينسجم مع أذواقهم التي سيطرت عليها النزعة العقلية، وخير مثال على ذلك كتـــاب «التلخيص» للخطيب القزويني (– ٧٣٩هـ) الذي أوجز فيه مباحث البلاغة التي ذكرها السكاكي (–٦٢٦هـ) في كتابه «مفتاح العلوم» فأصبحت جافة لا تنفع كثيراً مما اضطره الى شرح كتابه بالايضاح ودفع الآخرين كالتفتازاني وبهاء الدين السبكي وعصام الدين الاسفرايني وغيرهم الى شرحه أيضا.

وشاعت المدرسة الكلامية في المناطق الشرقية من الدولة الاسلامية حيث يغلب خليط من الفرس والترك والتتر، وكانت خوارزم اكبر البيئات التي ظهر فيها

(١) المقولة : صفة من الصفات تحمل على الشيء كالمقولات التسع : الكمية والكيفية والاضافة والمكان والزمان والوضع والملك والفعل والانفعال.